الدرس العاشر

(المتن)

واعلم أن النّاس في عبادة الله – تعالى – والاستعانة به أقسام:

أجلّها وأفضلها أهل العبادة والاستعانة بالله عليها: فعبادة الله غاية مرادهم، وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بها نهاية مقصودهم، ولهذا كان أفضل ما يسأل الرّب – تعالى – الإعانة على مرضاته، وهو الذي علّمه النّبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل فقال: (يَا مُعَاذُ إِنِّي واللهِ لَأُحِبُّكَ، لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ) [1]، **فأنفع الدّعاء طلب العون على مرضاته تعالى.**

(الشرح)

هذا التقسيم الذي شرع به المؤلف مستفاد من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في آخر التدمرية ومن كلام ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين، فبين أن الناس في عبادة الله تعالى على أربعة أقسام، ابتدأ بأعلى هذه الأقسام وأجلها وأفضلها وهم من جمعوا بين العبادة والاستعانة، فهم لم يستقلوا بأنفسهم ويشتغلوا بالعبادة دون استعانة، ولا تركوا الأعمال تواكلا على الأماني الباطلة، بل جمعوا بين العبادة والاستعانة.

وذلك فهوى الجملة العظيمة التي نقولها في كل ركعة: إياك نعبد وإياك نستعين، وهي وصية النبي ﷺ لمعاذ بن جبل.

(المتن)

ويقابل هؤلاء القسم الثاني: المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة لهم ولا استعانة، بل إن سأله تعالى أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته، والله – سبحانه وتعالى – يسأله من في السّموات والأرض، ويسأله أولياؤه وأعداؤه، فيمد هؤلاء وهؤلاء.

وأبغض خلقه إليه إبليس ومع هذا أجاب سؤاله وقضى حاجته، ومتّعه بها، ولكن لما لم تكن عونا على مرضاته كانت زيادةً في شقوته وبعده. وهكذا كل من سأله تعالى واستعان به على ما لم يكن عونًا له على طاعته، كان سؤاله مبعدًا له عن الله، فليتدبّر العاقل هذا، وليعلم أن إجابة الله لسؤال بعض السائلين ليست لكرامته عليه، بل قد يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكه، ويكون منعه منها حمايةً له وصيانةً، والمعصوم من عصمه الله، والإنسان على نفسه بصيرة.

وعلامة هذا: أنك ترى من صانه الله من ذلك وهو يجهل حقيقة الأمر، إذا رآه سبحانه وتعالى يقضي حوائج غيره يسيء ظنّه به تعالى، وقلبه محشو بذلك وهو لا يشعر.

وأمارة ذلك: حمله على الأقدار، وعتابه في الباطن لها.

(الشرح)

([1]) أخرجه أحمد- (٢٢١١٧)، وأبوداود- (١٥٢٢).

هذا القسم الثاني، هو والعياذ بالله نقيض للقسم الأول، وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة بهم، قوم لا تتعلق قلوبهم بالله ﷻ ولا يبتدرون طاعته، ولكن إن قدر أنهم سألوا الله تعالى فإنما يسألونه لأغراضهم الدنيوية، والله ﷻ قد يجيب دعاء قوم، ولكن إجابته لدعائهم استدراج منه ولذلك لم يبارك لهم فيه، فإذا دعوا فلأغراضهم الدنيوية، والله يمدهم، ولهذا قال: {كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا} [الإسراء:٢٠].

ولكن تكون عاقبته عليهم وبالا، وأشار الشيخ رحمه الله إلى علامة سوء وأمارة خذلان في حقه.

وهي أن تجده عندما يرى الله يوسع على غيره من الناس و لم يوسع عليه يسيء الظن بالله ويذم القدر ويخرج ذلك من فلتات لسانه وحاله.

(المتن)

ولقد كشف الله – تعالى – هذا المعنى غاية الكشف في قوله تعالى: {فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ *كَلاّ}.

(الشرح)

متعلقة بما قبلها، وكلا في الأصل كلمة ردع وزجر، ومعناها: ليس الأمر كما تزعمون، فليس إعطاؤنا علامة كرامة، وليس منعنا علامة هوان، وإنما الكرامة أو الهوان بحسب حال الإنسان، فمن قابل الإعطاء بالشكر وقابل المنع بالصبر فهو الكريم على الله، والعكس بالعكس، فمن قابل الإعطاء بالكفر وقابل المنع بالضجر فإن ذلك علامة الهوان على الله .ﷻ

فالإعطاء والمنع محض ابتلاء، ليس في حد ذاته دليل كرامة ولا هوان، هذا معنى قوله: {فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ} فيخيل إليه أن الله إذا وسع عليه ورزقه الصحة في بدنه وحصل له مراده أن هذا دليل على كرامته على الله وأن له منزلة خاصة، ويخيل إليه أنه إذا ضيق عليه رزقه وحيل بينه وبين ما يشتهي أن ذلك دليل هوان عند الله ﷻ، والأمر ليس كذلك، بل هو مجرد ابتلاء واختبار.

(المتن)

{كلا} أي: ليس كل من أعطيته ونعّمته وخوّلته فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته عليّ، ولكنه ابتلاء منّي وامتحان له، أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إيّاه وأحوّله عنه لغيره؟، وليس كل من ابتليته فضيّقت عليه رزقه، وجعلته بقدر لا يفضل عنه، فذاك من هوانه عليّ، ولكنه ابتلاء وامتحان منّي له، أيصبر فأعطيه أضعاف ما فاته، أم يسخط فيكون حظّه السّخط؟

وبالجملة: فأخبر تعالى أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرّزق وتقديره، فإنه سبحانه وتعالى يوسّع على الكافر لا لكرامته، ويقتر على المؤمن لا لهوانه عليه، وإنّما يكرم سبحانه وتعالى من يكرم من عباده بأن يوفّقه لمعرفته ومحبّته وعبادته واستعانته، فغاية سعادة الأبد في عبادة الله والاستعانة به عليها.

(الشرح)

واعتبروا بمثالين متقابلين، سلمان عليه السلام وقارون، سليمان عليه السلام قال: { يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ* قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} [النمل: ٣٨-٣٩-٤٠].

فالمؤمن اليقظ القلب يبصر من وراء العطاء أن حكمة الابتلاء، فقال: {لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ}، بينما قارون أتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، هذه مفاتيح لا يستطيع أن يحملها تسعة من الرجال من أهل القوة، { إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [القصص: ٧٦، ٧٧]. {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي} [القصص:٧٨] فنسب الفضل لنفسه وحذقه وكياسته وذكائه و لم ينسبه إلى الله ﷻ، فانظر كيف كانت العاقبة: {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ} [القصص:٨١]

(المتن)

القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة، وهؤلاء نوعان:

أحدهما: أهل القدر، القائلون بأنه سبحانه وتعالى قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، وأنه لم يبق في مقدوره إعانةً له على الفعل، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطريق وإرسال الرّسول، وتمكينه من الفعل، فلم يبق بعدها إعانةً مقدورةً يسأله إياها. وهؤلاء مخذولون موكولون إلى أنفسهم، مسدودٌ عليهم طريقة الاستعانة والتّوحيد.

قال ابن عبّاس – رضي الله عنهما –: (الإيمان بالقدر نظام التّوحيد، فمن آمن بالله وكذّب بقدره نقض تكذيبه توحيده)[1].

(الشرح)

النوع الثالث وهو من له نوع عبادة بلا استعانة، فهم يمتثلون الأوامر ويجتنبون النواهي لكن دون استعانة بالله، بل يعتمدون في ذلك على أنفسهم وقواهم ومقدرتهم، وهؤلاء كما قال نوعان: أحدهما: أهل القدر، المعتزلة الذين يقولون العبد يخلق فعل نفسه لا شأن لله تعالى به، يثبتون ما يسمونه (اللطف)، وهو أن الله أوجد العبد الآلات والقوى التي يتمكن بها من الفعل فقط، أما خلق الفعل فليس إلى الله ولا أثر لعون الله تعالى له، و لم يبق في مقدور الله ما يمكن أن يمكنه فيه من الفعل. ولهذا كان هؤلاء مخذولون؛ لأنهم وُكلوا إلى أنفسهم، فلم يستعينوا بالله ﷻ لتحقيق عبادته، ولهذا قال ابن عباس: الإيمان بالقدر نظام التّوحيد، نظام الشيء هو السلك الذي ينتظم حباته، فمن آمن بالله وكذّب بقدره، نقض تكذيبه توحيده، فلا يكون إيمان بالله مع تكذيب بالقدر، فإن مقتضى الإيمان بالله أن يعلم بأن الله تعالى هو المقدر المدبر، فمن لم يؤمن بذلك لم يكن لإيمانه بالله معنى، لأنه قدح في ربوبية الله.

(المتن)

(1) أخرجه ابن القيم- (في شفاء العليل/ ٦٥).

النوع الثاني: من لهم عبادة وأوراد، ولكن حظّهم ناقص من التّوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، وأنها بدون المقدور، كالموات الذي لا تأثير له، بل كالعدم الذي لا وجود له، وأن القدر كالرّوح المحرّك لها، والمعوّل على المحرّك الأول، فلم تنفذ بصائرهم من السّبب إلى المسبّب، ومن الآلة إلى الفاعل، فقلّ نصيبهم من الاستعانة.

(الشرح)

هؤلاء هم الجبرية، وهم طوائف من الصوفية لهم عبادة ولهم أوراد لكنهم يعتقدون أن العبد مسير مجبور على فعله ولا أثر له في حصول هذه العبادة، فعندهم نقص في التوكل والاستعانة لأنهم يلغون الأسباب، ولا يربطون بين السبب والمسبب، فنفيهم لأفعال العباد منعهم من أن اعتقاد أن العمل نتيجة لسبب نصبه الله تعالى سببًا، فلذلك قل نصيبهم من الاستعانة.

(المتن)

وهؤلاء لهم نصيب من التصرّف بحسب استعانتهم وتوكلهم، ونصيب من الضعف والخذلان بحسب قِلّة استعانتهم وتوكلهم، ولو توكّل العبد على الله حقّ توكّله في إزالة جبل عن مكانه لأزاله.

فإن قيل ما حقيقة الاستعانة عملاً؟:

قلنا: هي التي يعبّر عنها بالتّوكل، وهي حالة للقلب تنشأ عن معرفة الله – تعالى –، وتفرده بالخلق والأمر والتّدبير والضّر والنّفع، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فتُوجّب اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وثقةً به، فتصير نسبة العبد إليه تعالى كنسبة الطّفل إلى أبويه فيما ينوبه من رغبته ورهبته، فلو دهمه ما عسى أن يدهمه من الآفات لم يلتجئ إلى غيرهما، فإن كان العبد مع هذا الاعتماد من أهل التّقوى، كانت له العاقبة الحميدة: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق:٢-٣]، أي: كافيه.

القسم الرابع: من له استعانةٌ بلا عبادة، وتلك حالة من شهد بتفرّد الله بالضّر والنّفع، ولم يدر بما يحبّه ويرضاه، فتوكّل عليه في حظوظه، فأسعفه بها، وهذا لا عاقبة له، سواء كانت أموالاً أو رياسات، أو جاهًا عند الخلق، أو نحو ذلك، فذلك حظّه من دنياه وآخرته.

(الشرح)

القسم الرابع وهو حال كثير ممن لا يريدون إلا الحياة الدنيا وزينتها، فهم يستعينون بالله ﷻ ولا يعبدونه، فيوفيهم الله نصيبهم من الدنيا، {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ* أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [هود:١٥-١٦]، {مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ} [الشورى:٢٠]. فقد استعان ولم يتعبد.